يوحنا ١، ٤٤-٥٢

الأحد الأول من الصوم (أحد الأرثوذكسيّة)

رؤيـــــة الله

"وجهــك يــا ربّ أنــا ألتمــس"

يروي النصّ الإنجيليّ لنا حواراً بين فيلبس ونثنائيل. موضوع هذا الحوار ومركزه هــو المســيح، فيخبر فيليبس نثائيل أنّنا "قد وجدنا المُنتظر والمكتوب عنه في كتب موسى والأنبياء"، إنّه يسوع.

ما الذي يربط هذا النصّ بعيد رفع الأيقونات اليوم، أو كما يسمّى أحد الأرثوذكسيّة؟ لو أنّنـا استبدلنا موضوع الحوار، أي "وجدنا يسوع"، بكلمة تكرّرت في النصّ أكثر وهي (نظرنا)، لأدركنـا كيف تربط الكنيسة هذا النصّ بعيد رفع الأيقونات. إنَّ أكثر فعل يمرّ بالنصّ هو ما يتعلّــق بالرؤيــة والنظر، إنّه نصّ إنجيليّ يقدّس العيون. فتتكرّر عبارة: "رأى" و"نظر" و"انظر"... بمشتقاها سبعَ مرّات.

"الله لم يرَه أحد قطّ"، ولكنّ هذه الرغبة برؤية الله كانت أبداً الشوق الإنسانـيّ الملتهب طيلـة العهد القديم، ولكنّها رغبة لم تتحقّق. إنَّ أجلى تجليات الله لرجال العهد القديم كانت مع موسى وإيليا. وعلى طلب موسى: "أرِني مجدك" أجابه الله: "أظلّلك بيدَيّ إبَّان اجتيازي... أما وجهي فــلا يُــرى" (خروج ٣٣، ١٨-٢٣). وأمَّا إيليا فسمع صوتاً فقط (١ ملوك ١٩، ١٣). وهكذا راح الله يكشــف ذاته للناس أكثر فأكثر بطرق مختلفة، إلى أن حان ملء الزمان واستطاع إنسانٌ كفيليــبس أن يقــول لنثنائيل: "تعالَ وانظرْ (الله)" يسوع. ولهذا طوّب المسيح عيون التلاميذ التي رأت عن قرب ما "اشتهى أن يراه كثيرون من الأنبياء والصديقين، ولم يروه" (متى ١٣، ١٦-١٧)؛ وإبراهيم رأى هذا اليوم وأنَّ هذه الرغبة البشريّة لرؤية الله قد تحقّقت ففرح وتهلّل (يوحنا ٨، ٥٦).

في العهد القديم، لم يكن الله قد ظهر للعيون، كان يظهر للناس بأفعاله وبتدخّلاته وقيادته للتاريخ الخلاصي، لذا حرّمت الوصايا العشر صنع أي رسم أو منحوت لله خوفاً مــن الوقــوع في الصــنمية والوثنيّة. وما الوثنيّة إلاّ تصنيم وتأليه لأهواء البشر، فيعبدون في الوثن أهواءهم أو مثالياتهم. الوثنيّة هي

عبادة إله نحن خلقناه لذا يجوز فيها كلام سارتر (Sartre)، أنَّ الله أكبر خدعة في حياة الإنسان، دون أن تصحّ تهمته هذه على المسيحيّة. إله الكتاب المقدّس هو إله يكشف لنا ذاته كما هو وليس كما نظنُّه أو نريده. لذلك بعد تجسّد المسيح، الله الربّ ظهر لنا بالجسد، وصار ممكناً أن نرسم للابن أيقونة، لأنّنا قد رأيناه و"وجدناه" (يوحنا ١، ٤٥). لذا فالرسم الأرثوذكسي لا يُحبِّذ رسم الآب. أما الـــروح فنـــراه بشكل حمامة (من المعموديّة) أو ألسنة نارية (من العنصرة) فقط.

الأيقونة هي وساطة، بمعنى أنّها أداة تصلنا بالله، الله الذي نُغيّبه عن أغلب ساعات يومنا، فتـــأتي الأيقونة لتُحضِرنا إلى حضرة الله وتذكّرنا بندائه: "أنا على الباب واقفٌ أقرع" (رؤيا ٣، ٢٠). الأيقونة هي وسيط أيضاً أي في الوسط، لذلك نضعها وسط عملنا، وبيتنا، على الجدران في غرف النـــوم وفي غرف الجلوس، في المحفظة والكتاب... وكيفما التفتنا تكون هي في الوسط. ويصير الله شيئاً فشيئاً ومن خلالها وسط الحياة.

هذا هو رباط انتصار الأرثوذكسيّة برفع الأيقونات. إنَّ الأرثوذكسيّة تعني "اســـتقامة الـــرأي". والرأي هنا لا يعني المعلومات إنّما "الموقف" في الحياة. وبالتالي فالاستقامة هي استقامة المسلكية. إنّها في أن نعرف الحقّ فيما نسلك وفيما نسعى إليه.

المسيحيّ الأرثوذكسيّ هو من "موقفه"، من "حياته" مستقيم وصحيح. وهذا الموقف الصحيح ما هو إلاَّ "طلب رؤية وجه يسوع".

المسيح، هو من نسعى إليه، ومن نشتهي أن نراه. هذا هو الموقف المسيحيّ للحياة. وحين ارتفعت صورة المسيح وصور قديسيه عالياً في المجمع السابع (٨٤٢ م.)، ارتفع معها هـــذا الهـــدف واضـــحاً. والأيقونات المرفوعة في المنازل والكنائس... ما هي إلاَّ دفع لهذا الهدف نحو مساره القويم والصحيح.

ورؤية الأيقونة، رؤية المسيح، يجب أن تترافق مع "طهارة القلب" لأنّه "طوبى لأنقياء القلوب فهم يعاينون الله". لذا فإنَّ طهارة المسلك تجعلنا نرى الأيقونة فعلاً. كما أنَّ رؤية الأيقونة تهذب وتعففّ فينا المسلك. وهذا هو الإكرام والسجود الحقيقيّ للأيقونات.

فبأيقونتك الطاهرة لك نسجد أيّها الصالح

لأنّه "لله وحده تسجدْ وإياه وحده تعبدْ" (متى ٤، ١٠). آميـــــن